الحلقة السابعة عشرة

ديستوفسكي

olemandl.com

قبل ثلاثين عاماً تقريباً.. سألني أحد أقربائي المترفين.. من أصحاب الياقات البيضاء إن كنت قد قرأت رواية «الجريمة والعقاب»؟ وكان قد قرأ - صدفة - ترجمتها إلى الإنجليزية بعد صدورها في طبعتها الإنجليزية..؟ قلت، وقد أدهشني أنه قرأ تلك الرواية.. القاسية، المليئة بكل مشاهد الفقر وشظفه وعذاباته.. وإلى حد بيع النفس والكرامة والارتماء في أحضان الرزيلة: نعم قرأتها..؟

فأخذ يسألني بإلحاح: ولكن هل معقول أن يوجد فقر كهذا.. وفقراء كهؤلاء الذين تحدثت عنهم الرواية..؟!

كان ذلك، هو تأثير الرواية عليه. عميقاً مزلزلاً.. وهو المرفَّه الذي لم يعرف الفقر ولم يعشه. إنه ذات التأثير على كل من قرأ تلك الرواية من قبل أو شاهدها على الشاشة من بعد.. عندما قدمتها السينما في الخمسينات أو ستينات القرن الماضي، وتلك هي عظمة الرواية وكاتبها الروسي «فيودور ديستوفسكي» الذي عاش ومات في القرن التاسع عشر بين عامي ١٨٢١ إلى ١٨٨١م.. لكن أعماله لم تنتشر خارج روسيا ليس بسبب الستار الحديدي

obeikandl.com

الذي لم يكن موجوداً آنذاك لا هو ولا أصحابه.. ولكن بسبب غياب الاتصالات بين روسيا والعالم من خارجها، ولذلك لم يتعرف أحد على أعماله الروائية إلا في القرن العشرين وبعد أن شبع صاحبها موتاً لتشبع هي حياة.. مع انتشار حركة الترجمة بعد الحرب العالمية الأولى واتساعها بعد الحرب العالمية الثانية، ليقرأ الناس أولى أعظم رواياته.. «الجريمة والعقاب» التي كتبها بعد أن بلغ الأربعين، وفاض إناء حياته بؤساً ورعباً ونفياً وتشرداً.. فيتعرفوا على قلمه الساحر العميق الذي كتب به تلك الرواية.. وجسد به صور شخصياتها الذين كانوا يسبحون في بحر من الفقر متفاوت الأعماق، وقد توسطهم بطل الرواية «راسكولينكوف» الطالب الجامعي والمثقف الإنسان الذي لم يستطع أن يكمل تعليمه، والذي كان عليه أن يقبل أن تتزوج شقيقته الوحيدة بمن لا تحب ولا يحب.. لتمده بالمال الذي سيمكنه من إتمام تعليمه، والذي كان منذ نعومه أظفاره.. بالغ الثورة على الفقر. بالغ الشفقة على الفقراء والمعدمين والمحرومين. رائع في إنسانيته التي حملته وهو طفل في العاشرة ليقف إلى جوار الحمار الذي ظل يجلده صاحبه «ميكولكا» حتى مات لأنه لم يتمكن من شد العربة التي يشكل عائدها مصدر حياة صاحبها.. فيمسح على جبينه، ويقبله في عينيه، ثم ليستدير ليقفز على «ميكولكا».. ليضربه أو ليقتله إن استطاع لولا أن أمسك به والده وأبعده عن مسرح الحدث..

إن مشهد الظلم الذي رآه يقع على الحمار في طفولته.. رآه مجدداً في مطلع شبابه وهو يقع على من حوله من الفتية والفتيان

ممن كانوا يحتاجون - لفقرهم وعوزهم - إلى الاقتراض من تلك المرابية العجوز التي لا ترحم «الونا».. حتى تنادى بعضهم جهراً بقتلها، لا.. لأن قتلها وكما تبادر لأذهانهم ليس بجريمة «وإنما هو خدمة للإنسانية وللمصلحة العامة، لأنه في مقابل موتها وهي التي تملك مالاً وفيراً يمكن إنقاذ حياة الألوف من الدمار والإنحلال».. ليقوم هو نيابة عن الجميع بقتلها حتى ينقذهم من شُحّتها، وينقذ نفسه من العدم الذي كان يحاصره، وينقذ شقيقته من ذلك الزواج الكريه.. الذي لا تستحقه. ليتساءل بعد أن أقدم على قتل المرابية: «أهي جريمة أن أقتل حشرة شريرة سامة؟؟».. ليدخل بعدها في سلسلة طويلة من العذاب أبدع ديستوفيسكي.. في تصوير جحيمه الذي لا يطاق.. فلم يرحمه منه إلا اعترافه بارتكابه الجريمة وانتظاره راضياً لحكم القضاء فيه.

إن هذه الرائعة الأدبية بمشاهدها وتشابكاتها الروائية.. بتحليلاتها النفسية العميقة، وشخصياتها المسحوقة فقراً وذلاً.. بدءاً من والدته «بوليخيريا» التي تعيش على معاش تقاعدي لا يفي بنصف احتياجاتها.. إلا أنها فخورة بابنها، واثقة من نجاحه وبلوغه أعلى المراتب، فهو كاتب تنشر له كبريات الصحف.. وهي تعيش على قراءة تلك المقالات لنفسها ولجاراتها في حيها وفي الأحياء المجاورة، إلى شقيقته الكادحة الجميلة والحازمة «دونيا» التي تتعرض لصنوف المعاكسات والتحرشات من زوج السيدة «مارفا» التي تعمل في بيتها دون استجابة منها.. إلى أن سمعت «مارفا» زوجها وهو يطارح «دونيا» أشواقه ولكنها مع ذلك انتصرت

لزوجها واتهمت «دونيا» في أخلاقها.. حتى طردتها بعد أن شوهت سمعتها وشرفها في المدينة كلها، إلى المستشار ورجل الأعمال المتعالي «لوجين».. ذو الثروة المرموقة الذي تقدم بطلب الزواج من «دونيا».. فلم يخف صلفه وعنجهيته في أول لقاء بأمها بأنه «يرتاح لمصاهرة النساء الفقيرات»!!، إلى الفيلسوف الخمسيني العاطل والبائس «ميرميلادوف» الذي استسلم لبيع ابنته في سوق الرذيلة لتعوله وتعول زوجته وأبناءها وإلا ألقت به في عرض الطريق.. تمثل بحق أبرع وأنبل الدعوات إلى الابتعاد عن الجريمة حتى وإن بدا لمرتكبها أن بإمكانه الإفلات من يد العدالة إن هو أحكم التدابير في ارتكابها..؟!

* * *

بعد تلك الرائعة التي أصبحت في صدارة التراث الأدبي العالمي.. كان لأعمال «ديستوفسكي» الأخرى بعث جديد على المستويين العالمي والعربي.. بعد ترجمة روايته «ملاحظات من تحت سطح الأرض» إلى الإنجليزية في الثلاثينات.. ثم ترجمتها إلى العربية في نهايات الخمسينات من القرن الماضي بعنوان: «الإنسان الصرصار»، لتُفاجأ بها أوساط الأدباء والكتّاب والمثقفين العرب بصفة عامة.. فيقبلوا عليها وعلى قرائتها بشغف ونهم رغم صعوبتها واستحالة خيالات بطلها «الصرصار» الحائر الذي يقول عن نفسه بأنه «إنسان مريض.. إنسان حقود» وأنه «كان يستمتع بإذلال الناس الذين يقفون على مكتبه ليستعلموا عن أي شيء» وأنه «كان يستمتع بذلك إذا أفلح فيه»، إلا أن لهذا الصرصار الحقود

ميزة تميزه عن البشر الحاقدين من أمثاله فقد كان «يخجل من حقده».. ليحمل قراءه على التعاطف معه في توصيفه الثاني لنفسه بـ «أنه لم يكن غير ضارب للأرض بلا هدف. يُفزع العصافير الآمنة في طريقه.. واجداً في ذلك متعة أي متعة»، وأنه «لم يعرف كيف يكون أي شيء».. إلى أن ينتهي إلى القول في هذه المرحلة من حياته: ساخراً من نفسه. ساخطاً على زمنه لـ «أن الفرد في القرن التاسع عشر يجب أن يكون مخلوقاً لا شخصية له. أما الإنسان الذي يتميز بالشخصية.. الإنسان الفعال، فهو مخلوق محدود.. هذا هو ما تعلمته طيلة هذه السنوات الأربعين»، وكان قد كتب هذه المذكرات أو الرواية وهو في الثالثة والأربعين من عمره..

ليكتشف القراء بعد ذلك بأن هذا «الصرصار» الحائر والفيلسوف كان موظفاً، وأنه عندما توفى أحد أقربائه وترك له ستة آلاف روبل «استقال من وظيفته وقبع في غرفة كئيبة مع خادمة عجوز خشنة الطباع كريهة الرائحة». يفكر ويتأمل، ويرقب الدنيا من ذلك القبو.. ليقول عن مرحلته الثالثة: «إن شدة الإدراك.. مرض حقيقي. إن حياة الإنسان المألوفة لا تتطلب منه أكثر من إدراك الإنسان العادي. أي نصف أو ربع الإدراك الذي يتمتع به الإنسان المثقف في هذا القرن التاسع عشر الكئيب».. والذي لم يختلف القرن العشرين عنه كثيراً بعد أن غرق نصفه الأول في بحر من الحروب والدماء لكن «ديستوفسكي» لم يعشه.. فقد مات قبل بدايته بعشرين عاماً تقريباً، على أن صرصاره الحائر لم يترك قارئه حائراً مثله... بل كشف له عن أزمته وأمثاله عندما قال في

نهاية مرحلته الثالثة: «ليذهب هذا النظام الكوني إلى الجحيم. إنني أطالب بحقي في التصرف كما أشاء.. بحقي في اعتباري نفساً جوهراً فذاً فريداً»!! ليجد الكتَّاب والأدباء والمثقفون عامة.. أنفسهم فيما قاله هذا «الصرصار» الفيلسوف أو كاتبه «ديستوفسكي»، أما الكاتب البريطاني: «كولن ويلسون» صاحب أحد أشهر كتب القرن العشرين «اللامنتمي».. والذي تحدثت عنه وعن كتابه فيما سبق.. فقد قرأ تلك «الملاحظات» أو ما قاله «الإنسان الصرصار» أو «ديستوفسكي» على وجه الدقة.. قراءة دارسة متأنية مغتبطة. فقد وجد فيه ضالته.. وخير ما يقدم شخصية «اللامنتمي»: البائس واليائس والإنسان النبيل والمحترق بتميزه وتميز إدراكه، ليقول عن تلك «الملاحظات» أو «المذكرات» بـ «أنها أول رواية رئيسية تعالج فيها مشكلة اللامنتمي، وأولها في الأدب الحديث»..؟

* * *

عاش «ديستوفسكي» الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته.. مستقراً ناعم البال في رعاية زوجته الثانية «أنّا سنتكينا» التي اقترن بها بعد وفاة زوجته الأولى، والتي كانت تفهم نقاط ضعفه وقوته... باعتبارها عملت سكرتيرة له بعد أن تمكن من إعادة إصدار مجلته «الزمن»، باسم «الفترة» والتي كانت تتميز بحسن تدبيرها للأمور المالية التي لم يكن يعتني «ديستوفسكي» بضبطها كثيراً.. الأمر الذي مكَّنه من التفرغ لأعماله الأدبية خاصة وأن اسمه كان قد رسخ تماماً في سماء روسيا القيصرية كواحد من ألمع وأبرز كتابها الروائيين، ليكتب خلال تلك السنوات ثلاثة من أجمل وأمتع أعماله

الروائية.. كانت أولاها: «العبيط» التي قدمت على المسرح أكثر من مرة وتم اقتباسها لكثير من مسارح العالم فيما بعد، وكانت ثانيتها: «شباب فج».. وكانت الثالثة وهي الأهم، والأعظم والأضخم والأشهر.. هي رواية «الإخوة كارامازوف» بأجزائها الثلاثة.. وهي التي أضيفت لعمليه السابقين «الجريمة والعقاب» و«ملاحظات من تحت سطح الأرض» أو «الإنسان الصرصار»... لتجعل من اسمه ثاني ثلاثة في الأدب الروسي: ليو تولستوي برائعتيه: «أنا كرنينا» و«الحرب والسلام»، ومكسيم جوركي برائعتيه: «العالم السفلي» و«الأم».

نعم.. كانت «الإخوة كارامازوف».. هي الدرة الثالثة في أعمال ديستوفسكي، فبقدر ما تخاطفها القراء العرب من حين نشر ترجمتها إلى العربية في عام ١٩٦٨م.. كان السينمائيون والمسرحيون في الغرب أسبق في تقديمها على المسرح ثم على الشاشة الفضية.. ومازال كثير من تلفزيونات العالم تقدمها حتى اليوم..

كانت الرواية بأبطالها الأربعة الرئيسيين.. وهم: الأب «فيدرو كارامازوف».. وأبنائه الثلاثة: «ميتيا» بغرائزه وشهواته، و«إيفان» بعقله ورشاده، و«إليوشا» بمشاعره الإيمانية والإنسانية.. تقدم لوحة إنسانية عريضة عميقة في شرحها المظلم والقبيح، وفي حكمتها البهية الساطعة.. وفي نسائم عواطفها الإنسانية النبيلة، والإيمانية الراقية وهي ترسم للبشر دروب الخلاص، بعد أن التحمت حياة

أولئك الأبناء الثلاثة في صراع بعد مقتل أبيهم الشره في غرائزه كأكبر أبنائه «ميتيا».. بسبب تنافسه على حب ذات الفتاة التي كان ابنه يحبها.. ليقتله الأخ غير الشقيق لـ «ميتيا»، ولكن ولأن «ميتيا» هو صاحب المصلحة في موت أبيه.. فقد حكم عليه بالنفي لعشر سنوات في صحراء سيبيريا.. لتجري حلقات الصراع الدامية بين كل الأطراف في عائلة «كارامازوف».. إلا أن بُعداً إيمانياً كان يلوح على الدوام في نسيج الرواية من خلال تحليله للكفر ودواعيه.. لا ليثبته ولكن لينقضه، ويهدمه، ويفسح الطريق أمام الإيمان وعودة الإنسان إلى ربه.. إلى إيمانه.

لقد صدق ذلك الناقد عندما قال «إن قصص ديستوفسكي كالمخدات المحشوة بالأسمنت.. لا تريح من ينام عليها»!! فهي حقاً لا تريح.. لأنها توقظ العقل.. وتشعل الوجدان.. وتهز الضمير..

ولكن هذا الذي أحدثته وتحدثه قصص وروايات «ديستوفسكي».. هو الذي منحها خلودها دون شك، وسافر بها من زمن كتابتها في القرن التاسع عشر.. إلى زمن انتشارها في القرن العشرين، وستسافر بها قرناً بعد قرن.